3- مبادئ الأسلوبيّة(مقولات الأسلوبية)

إن الظاهرة الأسلوبية منوطة ببنية النص، لذلك أصبح هذا الأخير في نظر الأسلوبي خطاب تغلبت فيه الوظيفة الشعرية فهو خطاب تركب في ذاته ولذاته والأسلوب هو الوظيفة المركزية المنظمة للخطاب، ويتحدد بتوافق عمليتين متواليتين في الزمن ومتطابقتين في الوظيفة هما (الاختيار والتأليف أو التركيب) داخل نظرية الإسقاط التعادلية لمحور الاختيار على محور التوزيع.

و يعتبر جاكبسون الحدث الأسلوبي "تركيب عمليتين متواليتين وهما اختيار المادة التعبيرية من الرصيد اللغويّ، ثم تركيب هذه المادة اللغوية بما يقتضيه بعض قواعد النحو وبما تسمح به سبل التصرف في الاستعمال"(أحمد سليمان، ص21). وهكذا فإن الأسلوب، عند جاكبسون هو توافق هاتين العمليتين أو هو تطابق لجدول الاختيار على جدول التركيب(التأليف)، والرسم الآتي يوضّح ذلك :

الاختيار الأسلوبي (المحور العمودي)

(عملية استحضار لمختلف الكلمات الدالة على المعنى الواحد، ثم اختيار الأفضل والأصلح منها)

التركيب(التأليف) الأسلوبي (المحور الأفقي)

عملية تركيب الألفاظ مع مراعاة مجموعة من العلاقات النحوية والدلالية والأسلوبية

3-1- الاختيار الأسلوبي

ركّز جاكبسون اهتماماته الأسلوبية على "دراسة اختيارات الكاتب التي تحقق للنّص أمرين هما المتعة والقيمة الجمالية"(فضل، ص97)، أما الأولى فتصدر عن التراكيب المتميزة التي تنتج عن الاختيارات الأسلوبية والتي يُعمل فيها الكاتب وعيه الإبداعي ليثير دهشة القاريء، أما الثانية فتكون نتيجة للأولى لأنها تحوّل اللغة العادية إلى لغة جميلة قادرة على التواصل وعلى التأثير .

والاختيار الأسلوبي هو مجموع " المسالك التعبيرية التي يؤثرها الشاعر أو الأديب دون بدائلها التي يمكن أن تسد مسدّها لأنها في نظره، دون تلك البدائل، أو أكثر ملاءمة لتصوير شعوره وأداء معانيه"(الطرابلسي، ص19)، ومن ثم كان الأسلوب ذاته اختياراً، أي "اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه " (عبد البديع، ص22)، والاختيار يتم على مستوى الوحدات اللغوية من خلال تفضيل وحدة ما على غيرها من البدائل القريبة منه، والقادرة على أداء الدلالة نفسها أو القريبة منها، غير أنّ الكاتب يختار الأفضل والأصلح.

لذلك عرّف أحمد حسن الزيات الأسلوب بأنه" طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ وتأليف الكلام، وهذه الطريقة فضلا عن اختلافها بين الكتاب والشعراء تختلف في الكاتب أو الشاعر نفسه باختلاف الفن الذي يعالجه، والموضوع الذي يكتبه، والشخص الذي يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه"(الزيات، ص74).

والاختيار الأسلوبي عند الأسلوبيين هو **عملية واعية**، يقول شارل بالي عن قصدية الاختيار الأسلوبي: "إنّ رجل الأدب يصنع من اللغة استعمالاً إرادياً مقصوداً، ويستعمل اللغة بقصد جمالي"(عياشي، ص34).

3-2- التركيب الأسلوبي

يقوم التركيب على نوعين من العلاقات" تزدوج العلاقات الاستبدالية في محور الاختيار بالعلاقات الركنية في محور التركيب (التأليف)، وهذا الأخير يتمثّل في رصف هذه الأدوات وتنظيمها حسب تنظيم تقتضي بعضه قوانين النحو وتسمح ببعضه الآخر مجالات التصرف، وسميت علاقات ركنية باعتبار أنها تخضع لقانون التجاور، ودلالتها رهينة الأركان القائمة في تعاقبها، لذلك أطلق عليها أيضا محور التوزيع، لأن تنظيمها هو بمثابة رصف لها على سلسلة الكلام، وتتميز هذه العلاقات الركنية بأنها حضورية، فيتحدد بعضها ببعض بما وقع اختياره"(المسدي، ص: 134- 136).

أما قيمة التركيب الأسلوبية فتكمن في بثّه الحياة في تلك الاختيارات الإفرادية من خلال الجمع بينها في تشكيل لغوي واحد ومتماسك "ذلك أن الجمال في النص الأدبي، إنما يعود إلى العناصر البنائية متضافرة ومتفاعلة لا إلى عنصر بعينه منها"(مولنييه، ص93).

3-3- التداخل بين الاختيار والتركيب

وتكمن أهمية هذا التداخل بين مستويي الاختيار والتأليف في إثارة **دلالتي الحضور والغياب** اللتين تعملان كمثيرين أسلوبيين يربطان العلاقة بين النص والمتلقي، ويؤكدانها كلّما توسّع مجالها، فالكلمة الحاضرة في المحور الأول تدفع بالقارئ إلى استدعاء الكلمات الغائبة، وإلى تأويل النص وفق حضوراتها الممكنة في النص، كما أنّ التداخل بين الاختيارات الحاضرة والغائبة سينتج عددا كبيرا من التراكيب الممكنة، وبالتالي فالنص الواحد يخفي مجموعة من النصوص الغائبة التي يفترض المتلقي وجوده ويؤوّل النص وفقها.

يقول عبد السلام المسدي: " تتركب الكلمات في الخطاب من مستويين: **حضوري وغيابي**، فهي تتوزع سياقيًا على امتداد خطي، ويكون لتجاورها تأثير دلالي وصوتي وتركيبي، وهو يدخلها في علاقات ركنية، وهي أيضًا تتوزع غيابيًا في شكل تداعيات للكلمة المنتمية لنفس الجدول الدلالي، فتحل إذن في علاقات جدلية أو استبدالية، فيصبح الأسلوب بذلك شبكة تقاطع العلاقات الركنية بالعلاقات الجدولية، ومجموع علائق بعضها ببعض"(المسدي، ص84).

3-4- العدول(الانزياح أو الانحراف)

ويسمّى "الانزياح"، أو "الانحراف" كما سمّاه ابن جنّيّ قديمًا، أو كما سمّاه جاكبسون "خيبة الانتظار"(اللويمي، ص23)، ولهذا المبدأ أهمّيّة خاصّة في علم الأسلوب حتّى سمّاه بعضهم "علم الانحرافات"(عياد، ص37).

وهذا المبدأ ينطلق من تصنيف اللغة إلى نوعين(اللويمي، ص23):

- لغة مثاليّة معياريّة نمطيّة متعارف عليها.
- ولغة إبداعيّة مخالفة للنمط المعياريّ السابق.

فالعدول هو: مخالفة النمط المعيار المتعارف عليه إلى أسلوب جديد غير مألوف عن طريق استغلال إمكانات اللغة وطاقاتها الكامنة.

ويتّضح في هذا التعبير شرط يضبط هذا العدول حتّى لا يخرج عن الحدّ المقبول وهو أن يكون العدول في حدود ما تسمح به قواعد اللغة، وكذلك يجب أن يكون هذا العدول ذا فائدة فليس العدول غاية في ذاته إنّما المقصود منه إثارة السامع وحفّزه على التقبل(اللويمي، ص24).

يشرح لنا انكفست الانزياح (أو الانحراف) بقوله:" سنستعمل مصطلح انحراف لنقصد به الخلاف بين النص والمعيار النحوي العام للغة، ولهذا فالانحراف يعني عدم النحوية وعدم القبول"، ويحدد بول فاليري الأسلوب بأنه انحراف عن قاعدة أو معيار ما، أي انحراف عن قانون النحو، وبيّن مصطفى ناصف أن:" الاستعارة انحراف عن الأسلوب الواضح الدقيق".

فالانحراف إذن هو الخروج عن المألوف المعتاد في الكلام العادي بين الأفراد في المجتمع، والاتجاه نحو صيغة كلامية تبعث الإيحاء وتحث على التأويل، وبالتالي خلق التوتر والاستغراق في حالة التأثر ومحاولة الشرح، أو كما يسميه بعض الباحثين بـ:"مواطن الخروج على المستوى العام الذي عليه الاستعمال العادي للغة.

ولإضاءة مفهومه للانحراف عن السياق يورد ريفاتير مصطلحين هامين وهما: الارتداد والتناص، ويعني بالأول تلك الوقائع الأسلوبية التي سبق للقارئ اكتشاف قيمها ثم لا تلبث أن تعدّل معانيها بأخرى بناء على ما يكتشفه القارئ وهو ماض في قراءته، كما يعني بالتناص ذلك الأثر الذي ينشأ عن تراكم عدد من المسالك الأسلوبية لتحدث قوة تعبيرية لافتة، والتي يعدها مثالا للوعي البالغ باستعمال اللغة.

وهنا يطرح برنرد شبلنرن بعض الأسئلة الوجيهة مثل: على أي مستوى لغوي ينبغي أن تكون الانحرافات ممكنة؟ كيف يتحدد مستوى المعيار الذي ينحرف عنه النص؟ أي: عن أي شيء بدقة ينحرف النص؟

لا بد أنها أسئلة مهمة خاصة إذا أدرجنا الفعل التواصلي بين الأديب والمتلقي، فالأديب يهدف من رسالته إلى ملاقاة القارئ وإشراكه معه في الشرح والتحليل، فماذا يحدث إذا تعمق الانزياح كثيرا وأدى إلى غموض الرسالة؟، وهذا ممكن لأن القارئ قد لا يكون قادرا على فك الشفرة والإمساك بالدلالة، وهذا الإشكال يطرحه أحد الباحثين بقوله أن:" الانزياح يؤدي إلى غموض الرسالة، وإضعاف بنيتها، وهذا يعني أنه كلما عمد الشاعر إلى تعميق الانزياح ازداد انفصاله عن الجمهور"، وقد حدث مثل هذا من قبل فـ:" الشاعر الانجليزي=كيتس= يوم كتب إلى أخيه رسالة في 18 شباط 1819، لام السذج الذين يأخذون الكلمة بمعناها الحرفي دون بعد في خلفياتها" ، ولعل هذا ما يسميه أتباع فيتغنشتاين:"التشنجات العقلية التي تنشأ عن المتاهات التي تخلقها اللغة"، فالإنزياحات العميقة تخلق متاهات للعقل، وتجعله يسير في دوامة حلزونية لا متناهية تعيق فهمه للنص الأدبي.

إن:"الانزياح هو وسيلة الشاعر إلى خلق لغة شعرية داخل لغة النثر، ووظيفة خلق الإيحاء"، لكن يبقى السؤال جوهريا: إلى أي حد يمكن أن يستمر الانزياح؟، وهل وظيفة خلق الإيحاء مبرر كاف لمراوغة القارئ والابتعاد عن شريحة كبيرة من القراء، ما دام أن هدف الأدب حسب البعض هو تبليغ الرسالة وبناء فعل التواصل؟ إنه سؤال نضعه هنا على أمل الإجابة عليه في المستقبل. وتتخذ الأسلوبية من الخطاب الأدبي عامة مادة وغاية لها.